حريتي في "دروب الحرية"

بقلم محمد ابراهيم ابوسنة

ترجم الدكتور سهيل ادريس ثلاثية جان بول سارتر « دروب الحرية » في ثلاثة اجزاء منفصلة هي « سن الرشد » « وقف التنفيذ » « الحزن العميق » . والرواية تحكي الفترة الزمنية الواقعة بين سنة ١٩٣٧ و ١٩٤٠ ، هذه الفترة التي كانت الاحداث فيها تعد نفسها لانفجار الحرب العالمية الثانية . وماتيو هو بطل الرواية الاساسي مدرس تجاوز الخامسة والثلاثين من عمره ذو شخصية ناضجة يحبه تلاميذه ويثق فيه اقرانه وماتيو على علاقة دامت سبع سنوات بمارسيل التي لم يسبق لها ان تزوجت وتقيم مع والدتها ويرقى اليها ماتيو كل مساء ليمارس معها الحب وفجأة تثمر هذه المعاشرة ويعلم ماتيو بان مارسيل حامل وهنا تدخل نواياه وكيانه الفكري والاخلاقي كله في اختيار ويوضع فهمه للحرية في تجربة كاشفة فهو اما ان يلتزم موقفا يكون مسئولا فيه عن اعماله بحيث يتحمل في شهامة وكرم نتائج علاقته الاختيارية بالاخر واما ان يفضل الانسحاب الى ابعاده الذاتية ويرى الحرية قضية شخصية وهي ليست الا الارادة المطلقة التي يمارسها شخص ما في الحدود التي يستطيع الحصول عليها دون ان يأخذ نفسه بالتزام مسئولية محددة تجاه الاخر وبهذا الفهم تصبح الحرية سلبا وهروبا وانانية وقد انسحب ماتيو داخل نفسه وآثر حريته الخاصة أي انه ضحى بالحرية الحقيقية ودون ان يأخذ رأي مارسيل حول ما اذا كانت تريد الاحتفاظ بالطفل اخذ يركض في الشوارع باحثا عن ثلاثة الاف فرنك يجهض بها مارسيل لقد كان يرفض الزواج ومن اجل رغبته هو ضحى بحرية مارسيل وامام التهديد المفاجيء بسفر طبيب عمليات الاجهاض الماهر والذي لا يقل اجره عن ثلاثة الاف فرنك . وامام اعراض ماتيو التام عن التزام موقف كريم وعادل في قضيته لجأ الى احسن التصرفات . لقد سرق مالا من عشيقة تلميذه وحصل على الفرنكات وعندما ذهب الى مارسيل كان دانيال قد ايقظ فيها كرامتها وقرر ان يقوم هو بدلا من ماتيو بالتضحية العادلة . وكانت مارسيل تعتقد في صواب ماتيو انه لن يخدعها ولكن دانيال ومعه الاحداث أفلح في اقتلاع هذه الثقة من قلب مارسيل وبدون تروكاف تقدم دانيال كقربان جميل ليحمل الفداء للطفل وقذف بالفرنكات في وجه ماتيو وامام لولا صاحبة المال وعشيقة بوريس تلميذ ماتيو الراقصة التي تقف بعد الاربعين من عمرها . وهنا وبعد ان مرت مارسيل من تحت انف ماتيو احس انه قد اضاع كل شيء خاصة وانه فشل في خلق انسجام مع ايفيش شقيقة تلميذة بوريس واحس ماتيو انه عندما آثر ان يكون حرا وبلا مسئولية قد اضاع حريته فعلا وخسر كل شيء . ان الحرية ليست هي حريتي وحدها في كامل نشاطها . بل انها التقابل العادل بيني وبين الاخرين وكان على ماتيو ان يفقد اهميته . انه من البداية فاقد لايجابيته وغير قادر على المضي في حياته ، لانه منسحب وهارب امام مسؤوليته . وفي الجزء الثاني «وقف التنفيذ» تصور الرواية اعلانا عاما للتعبئة في فرنسا توقعا لقيام الحرب بينما كان تشمبرلين وهتلر يتشاوران في برلين وفجأة نجد ان فرنسا كلها تحاول أن تحصل على حظها الاخير تماما مثل لولا الراقصة التي تعاشر بوريس الذي لم تبلغ سنة العشرين عاما كانت تتشبث به في جنون لانه كان حظها الاخير . وهكذا فرنسا كل الناس يرتدون الى الماضي وعندما يأتي دور ماتيو يسأله أخوه : لماذا أنت ذاهب الى الحرب وسرعان ما يجيبه : لاني لا استطيع أن افعل غير ذلك . وهنا نجد الدلالة واضحة على ضياع الحرية انه لم يعد يمارس اختياره لم يحاول حتى ان يعي ما حوله حتى يقرر قبوله أو رفضه انه ما زال سجينا في قفص حريته الخاصة التي ليست بحرية على الاطلاق .

وعندما نجد لولا تغتصب بوريس في حجرتها الحمراء تحت شفق شهواتها الجائعة قبل أن يذهب الى الحرب نجد بوريس نفسه لا يحس بالندم على حياته الندم الذي يعذب ماتيو ان بوريس يقول : ان الحياة لا توصف بالطول ولا بالقصر انها فقط حياة :

أما ماتيو الحر السجين فهو يصيح مبتعدا عن فرنسا كلها ليعلن شعار الحرية التي انتهجها من البداية « ان الحرية هي المنفى وانا محكوم علي بأن اكون حرا » وواضح أن المنفى هو فهمه الذاتي وممارسته هو لحريته الخاصة وفي نهاية هذا الفصل يعلن أن التوقع كان كاذبا وان الحرب لن تقوم سنة ١٩٣٨ وعاد ماتيو الى حياته التي وجد أنه كان قد أضاعها وأن السلم أو الحرب بالنسبة اليه ما هما الا مرحلتان متشابهتان ما دام لا يفهمهما ولا يشارك في احداثهما وبينما كل الناس يعودون الى يومياتهم الخاصة ظل ماتيو في المنفى اي في حريته الخاصة . ويبدأ الفصل الثالث « الحزن العميق » منفتحا على التجربة تماما يبدأ الفصل الثالث وفرنسا راكعة على الحذاء الالماني والقطارات تتجول كالبرق في سهول فرنسا كلها ويذهب ماتيو الى الاسر الى المنفى الحقيقي هذه المرة ولاول مرة سيجد نفسه أمام الحزن العميق الذي حل بفرنسا وحل بالاسرى ويجد نفسه ملزما بممارسة الحرية الحقيقية في الاسر ان التجربة تعيده الى الحياة « انه ينظر الى الفراغ ويفكر « انا فرنسي » فيجد ذلك طريفا للمرة الاولى في حياته هذا طريف اننا لم نر فرنسا قط وانما كنا داخلها

لقد كانت ضغط الهواء وجاذبية الارض والفضاء والرواية واليقين الهادىء بأن العالم قد خلق للانسان وقد كان طبيعيا جدا ان يكون فرنسيا فتلك هي ابسط الوسائل وأوفرها ليحس نفسه عالميا ، لم يكن ثمة شيء للشرح فقد كان على الاخرين ، على الالمان والانجليز ، أن يشرحوا سوء حظهم أو غلطتهم بأن يكونوا رجالا تماما . لقد انقلبت فرنسا على قفاها ونحن نراها ، نرى آلة كبيرة معطلة ونفكر ما هذا (هذا) حادث ارضي حادث تاريخي اننا ما نزال فرنسيين ولكن هذا ليس طبيعيا بعد فقد كان حادث واحد كافيا يجعلنا نفهم أننا كنا عارضين » ولاول مرة يحس ماتيو بأنه داخل قوميته وأن الحس القومي يسيطر عليه عندما انقلبت فرنسا على قفاها وعندما كان زملاؤه في الاسر يحرصون على خلاصهم الشخصي كان ماتيو ينظر اليهم في ذهول: كلهم كلهم كانوا يفرون شوارتز بغير جلده ونبيير تتشبث بالنوم وبنيت غاضب وبيارنيه بريء اما لوبيرون فقد اختبأ في اللحظة يأكل ويسد كل منافذه بالطعام وكان لونجان قد ترك العصر كان كل واحد منهم قد كور لنفسه بسرعة الوضع الذي يمكنه من أن يعيش وانتصب ماتيو فجأة :

«انكم تثيرون اشمئزازي» وبينما اضاع ماتيو حريته الاولى لانه فر من مسؤوليته واضاع التزامه باختياره ، كذلك دانيال الذي كان حاسما قبل الاختيار الحقيقي نجده في الفصل الاخير هو نفسه دانيال المنحل الذي يبحث عن فرائسه على شواطىء الانهار ليذهب بها الى ظلام حجراته ليمارس الاثم . ان دانيال قد أضاع حريته لانه التزم بمسؤولية ليس هو صاحبها وعندما انقلبت فرنسا على قفاها لم تكن لديه الرغبة ليكون حرا اي ليلتزم موقفا حقيقيا أمام كارثة بلاده لانه قد أضاع التزامه في التجربة الاولى .

ان دانيال يتبادل مع ماتيو الموقف فكما أضاع ماتيو التزامه أمام مارسيل أضاع دانيال التزامه امام فرنسا . كان دانيال يمشي خافض العينين متلذذا وكان يسمع السيارات تنسل بقربه في الشارع ويفكر « ان مارسيل تنشف طفلها في داكس ولا بد ان يكون ماتيو أسيرا والارجح ان يكون برونيه قد قتل فجميع شهودي قد ماتوا او شردوا لقد استعدت نفسي لها وعندما سأل فيليب دانيال : هل انت جندي سمع دانيال السؤال بغير رضى :

ان حربهم لا تهمني : وهكذا نجد ان الشهم الذي تحمل عن ماتيو تبعته يفقد امام فرنسا مسؤوليته ، أما ماتيو فانه في النهاية يصطحب زملاءه ويذهب للقتال فهو يحاول في هذه المرة ان ينقذ ماضيه وحريته ، انه هذه المرة امام التزام حقيقي امام حريته، امام خلاصه : واستمر ماتيو يطلق النار وكان ما يزال يطلق حين انهار السقف عليه وتلقى عارضة على راسه فترك بندقيته وسقط وفكر في جنون خمس عشرة دقيقة واقترب من الافريز واخذ يطلق واقفا وكان ذلك ثأرا هائلا ، كانت كل طلقة تثار له من وسواس قديم . طلقة على لولا التي لم اجرؤ على سرقتها وطلقة على مارسيل التي كان علي ان اهجرها ... ونظر الى ساعته اربع عشرة دقيقة وثلاثين ثانية لم يبق الا مهلة نصف دقيقة ما يكفي فحسب لاطلاق النار على الضابط الجميل واطلق مرة اخرى واطلق وكان نقيا وكان قديرا وكان حرا . وبهذه الطلقات ينتهي دور ماتيو في الرواية بعد ان استعاد حريته التي فقدها من أجل مارسيل ومن خلال ماتيو نحس قضية سارتر الخالدة : ان الحرية هي الالتزام وفق اختيار وان المعنى المريض للحرية الذي يفهمه البعض ويفسرونه بأنه الانطلاق الطائش للارادة هذا المعنى ليس الا المنفى نفسه كما قال ماتيو بينما التعبير عن ارادة الفرد من خلال ارادة الجماعة هو المعنى الجدير بكلمة الحرية وهو ما استطاع ماتيو أن يحققه وهو في المنفى الحقيقي . وفي القسم الثاني من الجزء الثالث تتجاوز الاحداث البطل الرئيسي في دروب الحرية وتتحول القضية من قضية الاختيار والالتزام الى قضية العسر فالحرب تتولى تخطيط المصير للاسرى ولا يتمكن عامل المطبعة الذي حاول برونيه أن يشركه في منظمته لا يستطيع هذا العامل أن يعود الى ماضيه :

انه يبتسم في الفراغ ويقول : لولا هذه الحرب لكنا سعيدين كنت سأتخذ لنفسي ركني الصغير . وقرر العامل ان يعود الى الماضي وقفز من القطار واطلق الالمان ثلاث طلقات فتداعى العامل باسترخاء الى الوراء وسقط وابتعد القطار .

ان الحرية في النهاية هي التي تتولى اعدام الحرية. حرية عامل المطبعة الذي أوقفت الرصاصات الثلاث تدفق ماضيه في مستقبله . وكان الجسر هناك على بعد عشرين خطوة وقد أصبح حرا « سأتخذ لنفسي زاويتي الصغيرة » ويتابع الاسرى رحلتهم بعد ذلك في حماية البنادق المعادية للحرية .

القاهرة — **محمد ابراهيم أبوسنة**

مجموعات « الاداب »

لدى الادارة عدد محدود من مجموعات السنوات التسع الاولى من الاداب تباع كما يلي :

			ل.ل
السنة الاولى	١٩٥٣	(مجلدة)	١٥٠
السنة الثانية	١٩٥٤	(بدون تجليد)	٤٠
السنة الثالثة	١٩٥٥	« «	«
السنة الرابعة	١٩٥٦	« «	«
السنة الخامسة	١٩٥٧	« «	«
السنة السادسة	١٩٥٨	« «	«
السنة السابعة	١٩٥٩	« «	«
السنة الثامنة	١٩٦٠	« «	«
السنة التاسعة	١٩٦١	« «	«